

كيف أصبح بن أبي طالب علياً وسراً إلهياً؟

أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق

قراءة حديثة في رحاب فكر الامام علي (ع)

الدكتور عبد علي سفيح لازم/ فرنسا

باحث أكاديمي ومفتش في وزارة التربية الفرنسية

المقدمة

الامام علي(ع) رجل له من المواهب والقدرات، يعسر الالمام والإحاطة. تدعيه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة، وتتمسح فيه كل مدرسة فكرية في ميادين الحكمة والعلم. وهل ثمة من العلماء من قد أوتي من بسطة العلم ما يبلغه من العلوم الربانية والبشرية مثل مبلغ الامام علي؟

كان الامام علي ذا نظرة نفاذة، وروح نقية، وفكر عملاق. يتعمق ما أنتهى اليه من معارف الذين سبقوه، فيقر منها ما يقر، ويضيف اليها ما يضيف وهو القائل في وصيته لولده الحسن (ع) (يا بني، اني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عدت كأحدكم، بل كأني بما أنتهى الي من أمورهم قد عمرت مع أولهم الي آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لله من كل أمر نخيلة...)[1].

كان الامام علي يتأمل آيات الله في ملكوته، فينبهر ويعتبر ويفكر ويشهد ظواهر الخلائق

وخصائصها شهود متدبر ويغوص في أغوارها ويفسر مترحلا في خفاياها. كل خطوة يخطوها كان على النهج القويم الذي أمر الله الانسان أن بنهض العقل من سباته، ويدفعه الى النظر والتفكير وهو القائل (نحن عقلنا الدين عقل رعاية ووعاية لا عقل سماع ورواية. رواة الدين كثير ووعاته قليل)[٢].

أن بطولات الامام ما اقتصرت يوما على ميادين الحرب، فقد كان بطلا في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق انسانيته، وسمو دعته، ونصرته للمحروم والمظلوم وتعبده للحق أينما تجلى له الحق[٣].

الهدف من هذه الورقة البحثية هو رسم صورة تنبض من خلال فكر الامام علي (ع) وفلسفته للانسان والحياة. بهذه النظرة الثاقبة (خليفة)، وبهذه الروح المتواضعة (امام) نحاول أن نتحدث عن الامام علي الذي كان ولا يزال تلك الصورة الحية الاصيلية المشرقة للاسلام.

الرجال العظماء هم مثل القصور الشامخة، المزينة بالتحف الثمينة والزخارف الجميلة. لا يستطيع أي انسان أن يدخل فيها الا عن طريق أبوابها المؤسدة. هذه الابواب لها مفاتيح خاصة.

لفهم عملاق من عمالقة الفكر والروح والبيان مثل الامام علي في كل زمان ومكان. ولمعرفة سر أعماله وبلغ كلامه وعمق أفكاره، يجب علينا امتلاك هذه المفاتيح الخاصة والتي بها نستطيع اكتشاف جواهر حكمه، وجمال صنعه، وقوة نهجه. وليس صدفة أن يقول رسول الله (ص): انا مدينة العلم وعلي بابها[٤].

وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز "ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وآتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون" [٥].

من هذا القول نعرف منزلة الامام علي بالنسبة لهذه المدينة الفاضلة. فهو بابها. ومن هذا الحديث يتأكد لنا أن مركز اهتمام الامام علي كان أستاذه ومعلمه ومربيه وأخيه الأكبر هو محمد (ص).

لا يمكن معرفة حقيقة الرسول (ص) بدون المرور بالباب وهو الامام علي.

يندر أن التأريخ عرف رجلين ترافقا في طريق النور والخير والصلاح مثل ترافق محمد(ص) وعلي(ع). كأنهما منذ ولادتهما كانا على موعد مع النور والخير والصلاح، وما هي قرابة الدم والرحم التي جمعت بينهما، بل هي قرابة الروح على حد قول ميخائيل نعيمة.

ولو تفحصنا التأريخ لوجدنا شبيهه نادر لهذه الظاهرة حيث وجدت في العصر اليوناني حيث كان مركز اهتمام الفيلسوف اليوناني أفلاطون هو معلمه وأستاذه الفيلسوف والحكيم سقراط. ولولا أفلاطون لما عرفنا اليوم حقيقة سقراط.

أقوال وخطب الامام علي تعطينا الاحساس بأننا ممكن أن نفهم عمق قوله وندرك شخصه بدون بذل جهد كبير. لكن الحقيقة هي أعمق مما نتصور. هذه السهولة البلاغية تخفي وراءها هندسة عظيمة من الفلسفة العميقة المعقدة. لكي نفهمها نحتاج الى مفاتيح خاصة بأبوابها.

كيف جمع الامام علي بين هاتين الصورتين : السيادة والتواضع وبين القوة والرحمة، وبين امام وخليفة، وبين أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا وبين: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق؟

كتب العديد من المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء والفلاسفة والباحثين بمختلف لغاتهم وهوياتهم وانتماءاتهم الفكرية والدينية عن الامام علي أمثال طه حسين [6]، عباس محمود

العقاد [٧]، عبدالرحمن الشرقاوي [٨] ، جورج جرداق [٩] ، و محمد سعيد الطريحي [١٠] ، كتبوا عن سيرة وشخصية وفلسفة وحكمة وسياسة الامام علي ، كل من زاوية أو مدخل.

ورغم دراستي الدكتوراه وبحثي عن الامام علي بعنوان " علي بن أبي طالب امام وخليفة " والذي أعد في جامعة بوردو في فرنسا ، والذي أستند بصورة رئيسية على كتاب نهج البلاغة وهو مجموع ما أختاره الشريف الرضي من كلام وحكم الامام علي وقام بشرحه كل من بن أبي الحديد المعتزلي والشيخ محمد عبده ، إلا أنني وجدت أن هناك قضية مهمة لم يجر بحثها بشكل كاف ودقيق ألا وهي " فلسفة الامام علي للانسان والحياة".

نظرة الامام علي للانسان والحياة واضحة المعالم، متجانسة ومتكاملة الابعاد في سياق يمسك بقاعدتين فكريتين ، دينية وديوية. (أعمل لندنيك كأنك تعيش أبد وأعمل لاخرتك كأنك تموت غدا) [١١].

قد يبدو للبعض متناقضتين ولكن خلال تفحص فكر الامام علي نستطيع أن نجد أن هناك امكانية واضحة للتعايش بين هاتين القاعدتين ، لفهم حياة وسلوك الانسان وآفاق تطوره وتطور المجتمعات المرافقة له. أنها فلسفة في الحياة تفاؤلية ، ملتزمة بقاعدة التطور الانساني مع أفق واسع من الحرية الشخصية. كان الامام يشدد أن التغير والتطور الايجابي لحياة الانسان تخضع لضوابط يجب احترامها.

هذه النظرة الفلسفية العميقة للانسان والحياة جعلت من بن أبي طالب علياً سر الاسرار، ومشرق الانوار ، وسر الانبياء والمرسلين ، وسيد الاوصياء والصديقين ، والظاهر البرهان والباطن بالقدر والشأن. بهذه النظرة أصبح الامام علي سيد القوم ، محب الشهود ، ومحبوب المعبود ، باب مدينة العلم ، ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات ، وراية المهتدين وزين العارفين ، وامام السائرين والعادلين ، وأعظمهم حلما واكثرهم علما.

هو الامام اذا عد الائمة

قوله: (من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته

قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم) [١٢].

هو الحكيم اذا عد الحكماء

قوله: (عش لدنياك كأنك تعيش أبدا. وعش لآخرتك وكأنك تموت غدا) [١٣٨].

هو الفياسوف اذا عد الفلاسفة

قوله: (الغنى في الغربية وطن ، والفقر في الوطن غربة) [١٤].

هو الحلیم العافی اذا عد الحلماء والعافین

يقول بن أبي الحديد المعتزلي في كتابه " نهج البلاغة " : كان الامام علي أحلم الناس عن

ذنب وأصفحهم عن مسيء وذلك بقوله (اذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو عنه شكرا

للقدرة عليه) [١٥].

هو الزاهد اذا عد الزهاد

قوله : (أزهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها) [١٦].

هو الشجاع اذا عد الشجعان

قوله: (أن أفضل الموت القتل. والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من الموت على الفراش). [١٧] .

شجاعة أنست الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا من يأتي بعده. ومقاماته في الحروب مشهودة. وكانت العرب تفتخر في مقابله. وأما قتلاه ، فأفتخار رهطهم بأنه الامام علي قتلهم. قالت أخت عمر بن ود العامري تربيته :

لو كان قاتل عمر غير قاتله بكيته ابدا ما دمت في الابد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

هو التقي اذا عد التقة

قوله : (فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقتهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيتهم التواضع) [١٨] .

السؤال الذي يطرح وهو : كيف اجتمعت كل الخصال الحميدة ، والقيم المجيدة ، ومحاسن الافعال ، وكمال الخصال ، في رجل واحد أسمه علي بن أبي طالب؟

لماذا لم تجتمع ولو أعشارها في رجل لا من قبله ولا في عصره ولا من بعده ؟

هل لأنه :

كان يؤمن بالله الاحد القهار ؟. الجواب لا. لانه كان قبل الامام علي وحينه أناس يؤمنون بالله الواحد من اليهود والنصارى والمسلمين ، وقسم منهم استشهدوا بسبب عقيدتهم.

كان من أولئك الذين عاصروا رسول الله (ص) ولازمه فترة طويلة؟.

الجواب لا. لأنه كان هناك من عاصروا وعاشوا النبي (ص) أكثر فترة من الامام علي.

كان ممن صاهر رسول الله (ص) ؟. الجواب لا. لان كان هناك من صاهر رسول الله مرتين.

كان من أشجع بني قومه ؟ الجواب وأن كان أشجعهم. لكن لم تجتمع في أقل شجاعة منه أعشار مما أجمعت عند الامام علي.

فإن لم تكن القرابة والصحبة والمصاهرة والمعاشة مع رسول الله (ص)، ولا الايمان بالله الواحد القهار، ولا الكرم والتقوى والزهد هي الوحيدة والكافية التي جعلت من بن أبي طالب أن يكون عليا وسرا الهيا، اذن يا ترى ما هو هذا اللغز والسر العجيب؟

الرجال الذين تركوا بصماتهم في مسيرة التاريخ الانساني ، بنوا جل أفكارهم على نقطة بداية. وعلى ضوئها بنوا صرحا من العلوم والمعرفة. مثال على ذلك:

كارل ماركس: وجد المفتاح الرئيسي الذي به يفسر التاريخ وهي نظرية " الصراع الطبقي". [١٩].

دارون : الحياة نشأت من أصل واحد ، ومنها وضع نظرية " أصل الانواع " [٢٠].

أينشتاين: أراد أن يعرف أول معادلة رياضية على أساسها بني الكون، فوجد "النظرية النسبية " [٢١].

هويل وغيره وجدوا نقطة بداية الكون ، ومنها نظرية " البيك بونك " [٢٢].

نيتشة: بنى نظريته الفلسفية على أنه المحرك الرئيسي للانسان هو " حب أملاك القوة" [٢٣].

الاديان التوحيدية نقطة الانطلاق لها هي " التوحيد الالهي ".

السؤال هو : ما هي نقطة الابتداء للامام علي والذي بنى على ضوئها جل نظرتة وفلسفته

للإنسان والحياة؟ هذه النقطة لا يمكن معرفتها إلا من خلال شيء تفرد به الإمام علي عن عامة الناس قاطبة. لم يشاركه أحد لا من كان قبله ولا من في حينه.

تفرد الإمام علي دون سائر الناس جميعاً في ما يتعلق بوصفه الدقيق والعميق لخلق الكون ، والملائكة ، والإنسان ، والطاووس ، والخفاش ، و النملة ، والجراد. وصفها وكأنه عالم من علماء الحيوان والحشرات والفيزياء و البايولوجي. ومن أقواله:

وصف خلق الكون : (أمال الأشياء لأوقاتها. محيطاً بحدودها وانتهاءها ، عالماً بها قبل أبتدائها وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره) [٢٤].

وصف الملائكة : (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، عصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته) [٢٥].

وصف خلق الطير : (أسكنها أخاديد الأرض وخروق الجبال.... فالطير مسخرة لأمره) [٢٦].

وصف خلق الإنسان : (جمع سبحانه من حزن الأرض وسبخها تربة.... فجل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول أجملها حتى استمسكت ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت أنساناً ذات أذهان يجبلها. وفكر يتصرف بها وأدوات يقلبها ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل) [٢٧].

هل أراد الإمام علي من هذه الأوصاف الدقيقة أن يرينا جميل صنع الباري ، وقدرته وعظمته ودقة صنعه؟ إذا كان هذا هو السبب ، أولم يكفي وصف اثنين أو ثلاثة من هذه المكونات الكونية لكي تصل رسالته الى العالم؟

الجواب هو ليس هذا السبب الرئيسي. أذن ماذا أراد الإمام علي بالذات من هذه الأوصاف الدقيقة؟

أراد الامام علي أن يقول أن الله خلق عالمين. الاول عالم غير الانسان وهو عالم الملائكة والشجر والحجر والطير والحيوان وكل الحياة الاخرى. صفات خلق هذا العالم أنه عالم مسير لا مخير. لم يملك حق الاختيار. أنه مبرمج مسبقا. ولذا يقول : (،**امرها أن تقف مستسلمة لأمره . فما منهم زائع عن سبيل مرضاته. مسخرة لأمره.**)

أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان : عالم يملك حرية الاختيار ، لم يكن مبرمج مسبقا ، ولذا يقول: **(يفرق بها بين الحق والباطل).**

ماذا نستنتج من هذين التصنيفين ؟ ماذا كان يدور في ذهن وفكر الامام علي ؟

وكأن الإمام علياً أراد أن يقول إن الحرية هي الفاصل بين العالمين. الانسان هو الكائن الكوني الوحيد الذي يمتلك الحرية. أنها هبة من الله لا يعطيها لغيره. أنها مقدسة. فقد هذه الحرية ، هو الانتقال من عالم الانسان الى عالم الحيوان. وسلب هذه الحرية هي الاعتداء على أكبر الحرمات المقدسة. ولذا يقول : **(لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فأنهم مخلوقين لزمان غير زمانكم)** [٢٨]. وعلى ضوء هذه النقطة بنى الامام علي جل أفكاره، ومنها نستطيع أن نفسر مجمل تصرفاته.

مثال: في حرب صفين : عندما أوشك جيش الامام أن ينتصر على معسكر معاوية ، وخذعة التحكيم التي وقع في فخها فريق الامام علي، وبالرغم من تحذيره لهم ، الا أن الاكثرية أرادت وقف الحرب. وكان الامام يعلم أن النزول عند رغبة الاكثرية سوف يضيع أهم تجربة إنسانية مقدسة في مهب الريح. احترامه لهذا المقدس الذي به تميز عالم الانسان من عالم الحيوان ، فقال لهم : **(وليس علي أن أحملكم على ما تكرهون)** [٢٩]. وقوله : **(أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)** [٣٠] ، يريد أن يقول : أن العامل الموحد لكم هو امتلاك الاثنين صفة الحرية. الاثنان ورثوا نفس الارث المقدس.

فلنذهب بعيدا في فكر الامام علي. ماذا كان يتحسس في قلبه وعقله لهذين العالمين ؟

الامام علي يرى العالم غير الانساني وهو عالم الحيوان ، عالم ذو طبع ثابت. الثعلب يبقى ماكرا منذ ملايين السنين. الاسد يبقى وحشا والكلب يبقى كلبا. أي أن هذا العالم يكرر ما عمله آباءه منذ ملايين السنين. لذا هذا العالم لا تأريخ له . لأن حياته بنيت على التكرار .

هذا العالم غير الانساني ، لامكان فيه للضعيف. شريعة القوي يأكل الضعيف.

هذا العالم لا يتكلم. هزة أرضية أو بركان أو عاصفة أو الاسد عندما يهجم على فريسته، لا تتببه ولا تحذير.

أما العالم الثاني ، وهو عالم الانسان ، عالم لا طبع له. تجد أخوة من نفس البيت كل يبني حياته بطريقة تختلف عن الاخر. لذلك للانسان تأريخ. وهذا يفسر قول الامام (لا تقسروا أولادكم).

العالم الانساني ، عالم يحمي القوي فيه الضعيف. حماية الفقير والمحتاج واليتامى والمساكين والارامل والكهول.

هذا العالم يتكلم. أي يحذر وينبه ويصحح.

الامام علي كان يحذر الناس من الانتقال من عالمهم الى العالم الحيواني. رغم الضغوط التي كان يعاني منها ، لم تزحزحه قيد أنملة من عالمه الانساني. الامام علي كان أنسانا كاملا بمعنى الكلمة. ولذا كان يقول : (أحذركم من الدنيا فأنها منزل قلعة - أي ليست مستوطنة - وليست بدار نجعة - أي محط رحال ومنتجع - كم واثق بها فجعته وذي طمأنينة اليها قد صرعته. أفهذه الدنيا تأثرون أم أليها تطمئنون أم عليها تحرصون. ملكها مسلوب وعزيزها مغلوب وموفورها منكوب وجارها محروب) [٣١].

الهوامش:

١. سيد عطية أبو النجا: كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسي. بيروت ١٩٨٦ ص ٦٥٦
٢. نفس المصدر السابق. ص ٦٦٠.
٣. ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨).
٤. حديث صحيح في مستدرك الحاكم رقم ٤٦٣٧ ج ٦ ص ١٣٧ وتأريخ الخلفاء للسيوطي ج ١ ص ١٥٠.
٥. سورة البقرة. رقم الآية ١٨٩.
٦. طه حسين: كتاب الفتنة الكبرى علي وبنوه. القاهرة ١٩٥٣
٧. عباس محمود العقاد: كتاب عبقرية علي. المكتبة العصرية بيروت
٨. عبد الرحمن الشرقاوي : كتاب علي امام المتقين. بيروت لبنان ١٩٨٥
٩. جورج جرداق : كتاب علي صوت العدالة الانسانية. بيروت ١٩٥٤
١٠. محمد سعيد الطريحي: كتاب علي امام الامم. صدر بمناسبة مهرجان الغدير العالمي الاول ٢٠١١ .
١١. سيد عطية أبو النجا. كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسي. بيروت ١٩٨٦
١٢. نفس المصدر السابق. ص ٦٨٨
١٣. نفس المصدر السابق. ص ٦٨٤
١٤. نفس المصدر السابق. ص ٧٠٤
١٥. محمد سعيد الطريحي: كتاب علي امام الامم. ج ١ ص ١٩
١٦. سيد عطية أبو النجا: كتاب نهج البلاغة مترجم الى الفرنسية. ص ٦٩٨. بيروت

١٧. نفس المصدر السابق.ص٥٥٦

١٨. نفس المصدر السابق.ص٥٥٤

١٩. **كارل ماركس**: ١٨١٨-١٨٨٣. فيلسوف وعالم أقتصادي ومؤرخ. من أصل ألماني

٢٠. **داروين** : ١٨٠٩-١٨٨٢. بريطاني الاصل

٢١. ١٨٧٩-١٩٥٥. عالم فيزياوي ألماني الاصل

٢٢. **فرويده ويل** : عالم فلكي أول ما أطلق تسمية البيك بونك عام ١٩٥٠

٢٣. **نيتشة** : ١٨٤٤-١٩٠٠. فيلسوف ألماني الاصل

٢٤. **سيد عطية أبو النجا** : كتاب نهج البلاعة ص٢٦ بيروت ١٩٨٦

٢٥. نفس المصدر السابق. ص٣٦

٢٦. نفس المصدر السابق.ص١٥٠

٢٧. نفس المصدر السابق. ص٣٦

٢٨. نفس المصدر السابق. ص ٤٦٥

٢٩. نفس المصدر السابق. ص ٣٨٤

٣٠. نفس المصدر السابق. ص ٤٦٠

٣١. نفس المصدر السابق.ص٥٨٨

